من تراب الطريق! (٢٤٣)

التنوير الزائف ! (*)

(١)

هل يوجد تنوير زائف، ولماذا يوصف بأنه تنوير إذا كان زائفا ؟! نحن نعرف أن النور يقابله ظلام، وأن التنوير يقابله تعتيم أو إظلام، فلماذا : " التنوير الزائف " ؟!

هذه العبارة اختارها الصديق الجليل الدكتور جلال أمين عنوانا لكتاب أصدرته دار المعارف فى سلسلة " اقرأ " العدد (٦٤٠) سنة (١٩٩٩) .. لا خلاف على أن " التنوير " تعبير يقصد به إنارة وإعلاء وتحكيم العقل، والتحرر فى تقييم الأمور والحكم عليها من الأهواء والتحيزات المسبقة، ومن سلطان التقاليد والأعراف إذا تعارضت مع العقل والمنطق، فهل أفلح المتنادون منذ القرن الثامن عشر فى أوروبا فى التخلص من أهوائهم وتحيزاتهم الخاصة، ومن سلطان التقاليد والأعراف - هل أمكن فى ذلك الزمان، وهل هو ممكن الآن تحقق التنوير الخالص المصفى من الأهواء والانحيازات ؟! وهل يوجد حد فاصل بين التنوير الزائف والتنوير الحقيقى ؟!

ليس فى نيتى، ولا يتسع المجال هنا، أن أقدم لك ما فى الكتاب، حسبى التنبيه الذى أراد الدكتور أن يقرع عقولنا به . الرسالة التى أراد التنبيه إليها من البداية أنه لا يوجد ما يسمى بلغة هيئة الأمم المتحدة، وهى لا تقصد لغة الحديث أو الكتابة، وإنما عالمية منطق التقارير الصادرة عنها .. الخطأ الذى تصدره إلينا، ونلتقطه دون أن ندرى، أن العالم واحد ينبغى

(*) المال ٢٠٠٩/٤/١٤

أن تكون له رؤية واحدة، ومنطق واحد، ونظر واحد .. وليس هذا صحيحا .. إن العالم ليس واحدا تحكمه مصالح واحدة غير متضاربة، وتسوده قيم واحدة غير متباينة . العالم عوالم متعددة بقدر خصوصية كل بلد الدينية والتراثية والثقافية والبيئية والاقتصادية والاجتماعية ..

لقد اتخذ الدكتور جلال من وثيقة مؤتمر السكان والتنمية الذى عقد بالقاهرة فى سبتمبر ١٩٩٤ مثالا على هذا التصدير أو التنوير الزائف المروم جرّنا باللا وعى إليه .. نعم نحن فقراء، ولكننا لسنا متخلفين .. وقياس التخلف على تقاليد ونمط الحياة الغربية مغالطة هائلة .. الاستسلام لها ينطوى على حمق وعماء .. الوثيقة التى كانت معروضة على مؤتمر السكان المطلوب منه إقرارها - وثيقة مذهلة تتبنى خصوصيات نمطية غربية من المحال أن يقبلها مجتمعنا، بل إنها كانت غريبة فى الغرب نفسه من عشرين سنة !

الوثيقة تتملق بشدة الحركات " النسوية " الجديدة فى الغرب، وكأنها جاءت بآخر اكتشافات العقل الإنسانى ووضعت يدها على آخر أسرار التقدم البشرى حينما تنادى بالمساواة فى كل شىء دون نظر لاختلاف الدور والوظيفة، ولولا بقية من عقل أو حياء لطالبت بأن يقوم الرجال بإرضاع الأطفال أسوة بالنساء .. تتنادى الوثيقة - بمسلمات لمجرد أن الغرب أخذ بها أو بالأحرى وقع فيها .. حتى بنفس ما يعانيه الغرب فى الجريمة والشذوذ الجنسى .. تفيض الوثيقة بالكلام عن السكان والعلاقات الجنسية، ولكنها لا تكاد تتلفظ بكلمة " الزواج " أو " الأسرة " .. تعتبر من المسلمات وجود علاقات جنسية قبل الزواج وتدعو إلى تنوير الأطفال (!) وتسليحهم بواقيات أضرارها المحتملة (؟!) وتعتبر هذه العلاقات حقا من الحقوق واجبة الاحترام، مع الفصل التام بين الزواج والإنجاب، وعدم جرح شعور الشواذ جنسيا، وإقرار العلاقات المثلية بين الرجال والرجال، وبين النساء والنساء، وتعتبر حرية الاختيار فى هذا البلاء من الحريات الأساسية . المهم هو أقصى درجات " الإمتاع " للفرد تبعا لميوله

وأهوائه مهما كانت غرابتها فى نظر الثقافات الأخرى أو تقاليدها وأعرافها . والأغرب أن الذين يصرون على الكلام هنا بلغة عالمية، لا يحبون أن تكلمهم بنفس اللغة عندما يتعلق الأمر بفتح أبواب الهجرة فى بلدانهم .

لماذا هذا الإحساس الدفين لدينا بالنقص بل بالعار إزاء كل ما هو أجنبى، ولماذا يبدو فى عبارات المذيعين والمذيعات وكأنهم يستجدون كلمة ثناء أجنبية على طيبة أو كرم المصريين، ولماذا يفرط المذيع دون وعى بالقول أن المؤتمر يستمر يوم الجمعة لمجرد أن الغرب يعتبره يوم عمل كباقى الأيام، ويتوقف يومى السبت والأحد لأنهما هناك " عطلة نهاية الأسبوع " !

يبدو أن هذه العقدة التى فجرها الدكتور جلال أمين : الإحساس بالعار والنقص أمام الغرب، هى التى لا تزال تجرنا إلى كل ما نجاريه فيه فى مقررات يومية بدأت تطول مجالات كثيرة حتى فى التشريع وقضايانا الأساسية مثل قضية الجنسية مع أنها من المصالح العليا التى تحكم الدساتير نفسها !! .. من الخطأ البين أن يحسب ما يجرى على أنه انحياز للتنوير .. الغرب نفسه لم يكن خالص النية بريئا من الأهواء فى حركة التنوير التى بدأت فى القرن (١٨) وشابتها المصالح والأهواء والانحيازات، ومع ذلك فإن تجرده - إن كان جدلا - لا يعنى أن ما يراه تنويرا هناك هو بالضرورة تنوير هنا .. بل هو التنوير الزائف لو كنتم تعلمون !